وحى ذكرى

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيدحجي
السنة السادسة - العدد 1189 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس 1943

قاسم الزهيري

ما أكثر ما يموت أناس، فلا يكون لوفاتهم سوى وقع خفيف في محيط ضيق؛ ثم لا تمر بضعة أيام حتى يواري ذكرهم إلى جانبهم؛ وإذ كل ما تبقى لهم من حظ في هذه الحياة قبر ضيق يتوارون فيه عن أعين الأحياء؛ فينقطع كل سبب بينهم وبين هؤلاء؛ وتنفصم كل رابطة كانت تجمعهم مهما كان نوعها، فيمسي الأحياء ويصبحون، وكأن شيئا مهما لم يقع، ويغدون ويروحون وكل شيء قد امحى من ذاكرتهم. ثم يسترجعون طبيعتهم التي فطروا عليها، فيجدون ويمرحون على نحو ما كانوا يفعلون من قبل أن تحل بهم الكارثة، ويستجمعون قلوبهم من اللهو بمثل ما كانوا يصنعون لو لم ينتثر عقدهم.

وما أقل ما يموت أناس آخرون، فينقلب المصاب فيهم مصاب أمة بأسرها: فإذا بكل بيت حداد، وفي كل عين عبرة، وفي كل صدر لوعة وحسرة، وسر ذلك أن الراحل لم يكن قيد حياته ملكا لنفسه، بل ملكا مشاعا ينوب حظ منه كل فرد من أفراد الأمة: هذه العائلة الكبرى؛ يتقاسمونه على وجه المساواة، سواء النائي منهم أو الداني، وسواء كان الفقيد يلابسهم ويلابسونه، أو كان بمعزل عنهم.

يتنبه حينذاك ضمير الأمة - وما اخاله يتنبه إلا لأمر خطير - فيندب شخصا، لا القرابة تجمعه وإياه، ولا الدم يحكم صلته به، ولكنها الروابط المعنوية التي تسوغها يد الصانع الحكيم بين أعضاء المجتمع الواحد وبين فرد من أفراده قد انتدب نفسه وقصر همه على

خدمته، يستيقظ ذلك الحب الدفين الذي تكنه آلاف القلوب للراحل، فيتجسم في هاته الدموع الحارة وفي هاته الآهات المنتزعة من صدور مكلومة، وفي هاته النظرات الفاترة الكسيرة.

فما هى إلا لحظة وجيزة - لحظة الأجل المحتوم - وإذا النفس البشرية قد اغتسلت من كل ما أعتراها من أدران ناشئة عن بعض الغرائز الأثيمة، وتطهرت من جراثيم الأضغان والحفائظ، وتجردت عن الأهواء والمغالطات، فشيعت الفقيد لمقره الأخير في جلال وإكبار وتقدير. لحظة ليست من دنيانا في شيء، فقد تعد فلتة من فلتات العالم العلوي: عالم الكمال والصفاء والإخاء، تنزع فيها الروح البشرية إلى معينها الأول، فلا تشوبها الأغراض الدنيئة السافلة، ولا تمازجها الشهوات البذيئة الخسيسة.

تشهد - ويا روعة ما تشهد - جموعا متراصة متكتلة، تمشي وراء النعش وقد ألفت بين قلوبها المتباينة وحدة الألم ،فخرجت عن طبيعتها المفتعلة، وأشرفت بهوامع الدموع من فرط ما منيت به في أعماقها من تباريح الخطب وهول المصاب. تجهش إلى ربها بالبكاء - كما يجهش الطفل إلى أمه وقد أعوزته الحيلة - مستمطرة شآبيب رحمته وغفرانه على الراحل الكريم ، مبتهلة إليه عز وجل أن يبدلها بما يماثله، فيسد مسده.

كذلك كانت الجموع من وراء نعشك يا سعيد! وأنت في طريق لقاء ربك. أفواج من الناس عرفوك وخبروك وألفوك، فما أن تناهى إلى سمعهم خبر وفاتك حتى انجزعت منهم الأفئدة؛ وانقبضت نفوسهم فلم يشعروا برزية أفدح ولا بمصاب أهول من مصابهم فيك؛ فمنهم من فقد فيك الصديق الحق، وفيهم من فقد فيك الأخ الشفوق، وكلهم فقدوا فيك العامل المجد.

ولا يزال شخصك الكريم موضع الثناء والأسى والتحسر كلما جرى ذكرك على ألسنتهم؛ فأثار دفائن ودفائن من حياتك العزيزة الغالية.

فطب مقرا بجوار ربك « فمن أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة » .